(العروبـــة ـ الإســـلام)
عضوية العلاقة ـ تكاملية المنهج
((قراءة في الفكر العربي الحديث))

د. سعد خميس الحديثي
كلية الآداب – جامعة بغداد

تمهيـــد :

مما لا شك فيه أن من أبرز تيارات الفكر العربي الحديث التي أستأثرت بالقدر الأكبر من اهتمام المثقفين ، والانتشار بين أوساط الجماهير ، والتواصل والحضور عبرَ عقود القرن العشرين . كان التيـاران (القـومي ، والإسـلامي) وبدرجات متفاوتة من الحضور .

ففي حين كانت بعض العقود قد شهدت بعض التفوق للقوميين ، جـاءت عقود أخرى لتعطي هذا التفوق للإسلاميين . في حين أن تيـارات أخـرى مثـل (العلماني ، الليبرالي ، الماركسي) قد أنكفأت في أطر ثقافية محدودة إن لم نقـل أنها قد تلاشت تدريجياً من المشهد الفكري العربي الحـديث والمعاصـر بتـأثير الظروف السياسية التي مرت بها الأمة العربية في العقود الأخيرة وكذلك بسـبب المتغيرات الدولية العديدة التي ألقت بظلالها على الوطن العربي مثلما ألقت بتلك الظلال على العالم بأجمعه .

لقد كان القوميون والإسلاميون الأكثر حضوراً وتأثيراً في الحيز الثقـافي أولاً ، وفي الحيز السياسي ثانياً . وإن كان حظ القوميين في هذا السياق أكثـر بروزاً ، الا أن الحضور الإسلامي كان هو الآخر مهما من خلال دور المعارضـة السياسية (الذي قاموا به بصورة فاعلة والذي شكل أحد طرفي المعادلة السياسية باستمرار السلطة – المعارضة) ، وفي الحيز الجماهيري ثالثاً . الا أن ما يؤخـذ على هذين التيارين الذي يشكل بدوره الأشكالية الأبرز التي عانتها الأمة العربية

في العقود الأخيرة (على المستوى المنهجي المطلوب لتحقيق النهضة العربية - أولاً - وللوقوف بوجه الأخطار الخارجية بكل أشكالها - ثانياً-) هو أن كلا منهما قد حاول أن يلغي أو - في الأقل - يهمش دور الآخر ، وفهم أن الآخر هو ضد أو نقيض لا يمكن الا أن يعارضه . وبقي هذا التصور الذي أفقد الأمة العربية كثيراً من قدراتها التوحيدية وعناصرها الوحدوية .

كل من القوميين والإسلاميين ظنوا أنهم لا يمكن لهم - بحال من الأحوال- أن يلتقوا مع الطرف الآخر . فبدلاً من ان تتوجه قدراتهما نحو التقارب والتكامل لمواجهة التحديات التي تفرضها أملاءات الواقع الدولي التي تحيط بالأمة العربية (من استعمار بكل أشكاله العسكرية المباشرة ، والسياسية ، والاقتصادية ، والعلمية، والاجتماعية ، والثقافية ، إلى تحديث أو حداثة وما قد تفضي إليه من تغريب) . فأسهما من غير أن يقصدا في أضعاف الحشد التعبوي للأمة العربية في المواجهة بينها وبين الغرب المتفوق علمياً واقتصادياً ومن ثم عسكرياً . إذ أن كلا منهما بدلاً من أن يستعين بالآخر للتصدي للخطر الخارجي الذي يستهدف كيان الأمة وهويتها ممثلة في قيمتها الحضارية والروحية - على حد سواء - بدلا من ذلك فقد انشغل عن معركته الأساسية المشروعة - بل الواجبة - بالخلاف مع الطرف الآخر .

الا أن هذا الوضع - وبحمد الله - قد تغير تدريجياً منذ بدايات عقد الثمانينيات وبدأ هذا التغير يؤتي أو كله بصورة جلية في عقد التسعينيات من القرن الماضي ، فأدرك القوميون كما فعل الإسلاميون أن عدّ أحدهما الآخر بمثابة عدو لابد أن يقضي عليه أو يحجمه - على الأقل - كي يحقق برنامجه الأصلاحي ، عدّا هذا الفهم قاصرا أن لم يكن خاطئاً ، فأستعاضا عن منهجيتهما السابقة التي اعتمداها التي كانت تقوم على تصيد أحدهما الأخطاء للآخر وبحثهما عن أسباب الاختلاف والخلاف التي أفرزت فرقة وانقساما ، فبدئا بدلا من ذلك يدركان الآن أن المنهج الذي يجب أن يعتمداه أن يقوم على البحث عن

نقاط الاقتراب والتلاقي مع الآخر ، وأن طبيعة التحديات الجديدة التي واجهتها وتواجهها الأمة والمخاطر التي تحيط بها ولاسيما في العقود الأخيرة التي فرضها الواقع العالمي الجديد ممثلا بانتهاء الحرب الباردة وهيمنة القطب الواحد والدعوة إلى النظام العالمي الجديد بعدّها هدفا تبنته المؤسسة السياسية في الولايات المتحدة وجندت لها منظريها الفكريين وأجهزتها الدعائية والإعلامية . هذا النظام الذي يعطي الولايات المتحدة السلطة والشرعية لتؤدي دور الشرطي العالمي الذي يتدخل في أي مكان في العالم ليفرض ما يسمى بالشرعية الدولية التي هي تتابع قرارات مجلس الأمن الأمريكي (لا الدولي) ، والسبيل إلى ذلك يقوم على شعارات براقة ومضللة مثل (الديمقراطية ، حقوق الإنسان) . أما السند الثقافي لهذه الدعوة فيستند إلى نظرية "فوكوياما" في نهاية التاريخ التي تعني ضمنا أن النمط الديمقراطي (الليبرالي) الغربي هو الذي يسود العالم في الإطار السياسي ، وأن النمط الرأسمالي (اقتصاد السوق) هو الذي يسود العالم في الإطار الاقتصادي . هذا ان النمطان هما اللذان انتصرا بعد انهيار النقيض في معادلة التوازن العالمي (الحرب الباردة) وهذا النقيض هو الأيديولوجية الماركسية (المعسكر الشرقي) .

لقد تأسس هذا الوهم لدى الولايات المتحدة على قناعة خاطئة مفادها أن أنهيار أحد طرفي المعادلة يعني بالضرورة سيطرة الطرف الآخر وسيادته ، وأن تفكك أحد قطبي التوازن يعني هيمنة الآخر . وهذا بلا شك غير صحيح ، بل هو خديعة تحاول أجهزة الدعاية الأمريكية أن تظهرها للعالم بعدّها حقيقة مسلمة وأن تزرعها في أذهان الناس بعدّها كذلك .

وفي سياق هذه المنهجية التي تعتمدها الولايات المتحدة تأتي الدعوة إلى العولمة Globalization بعدّها أبرز أشكال هذه المنهجية وأهم وسائلها ، التي تبغي فيما تبغيه استخدام المؤسسات الدولية مثل (مجلس الأمن وصندوق النقد الدولي) أدوات فعالة في خدمة أهداف السياسة الأمريكية تحت غطاء الشرعية

الدولية المهلهل في أماكن الأزمات في العالم لتفرض أملاءاتها على الاطراف العالمية التي تتجرأ على سلوك سبيل مستقل بعيدا عن النهج الأمريكي.

وتأسيساً على هذا الواقع الخطير كان لابد للتيارين القومي والإسلامي - بعد أن كانا يسيران في اتجاهين متباعدين إن لم يكونا متعارضين - أن يعدلا من مساريهما ويحاولان أن يتقاربا أكثر وصولاً إلى التكامل .

أن وجود هذه الأمة وكيانها وتبعا لذلك حضارتها تستند إلى قاعدتين أو دعامتين أساسيتين هما : العروبة والإسلام . واستبعاد أي منهما يعني الحكم على الأمة بأن تكون عرجاء أو أن تكون معوقة عن النهضة وكسيحة عن الفعل الحضاري .

وقراءة متأنية للفكر العربي الحديث تظهرنا بشكل جلي على أن العلاقة الوثيقة بين العروبة والإسلام وتداخلهما كان حاضرا يدركه معظم المفكرين العرب المحدثين الذين وعوا أهمية وضع منهجية تقوم على التكامل بين العروبة والإسلام، أساساً لأي مشروع نهضوي للأمة وهذا ما سنحاول التعرف على أهم ملامحه في إطار المشهد الفكري العربي الحديث .

دور العرب في الإسلام ومكانتهم :

لقد كان الشعور بالانتماء إلى العروبة والاعتزاز بهذا الانتماء حاضراً في أطروحات المفكرين العرب حتى القدماء منهم ، ولعل أولى الإسهامات البارزة في هذا السياق هي محاولة الجاحظ[١] التي ساعدت على بلورتها طبيعة المرحلة التاريخية التي عاشها الجاحظ وعكست تحدياتها ممثلة في انتشار الحركة الشعوبية آنذاك بين الكثيرين من المفكرين والأدباء والشعراء من ذوي الأصول غير العربية ولاسيما الفارسية الذين اتخذوا الدين الإسلامي ستاراً لهم يخفون وراءه مبادئهم الهدامة ، وينفثون من خلال هذا الانتماء الشكلي للدين الاسلامي أفكارهم المضللة. وفيما بعد كان لابن تيمية القدح المعلى بهذا الشأن في العصر الوسيط ، إذ أن هذا المفكر الموسوعي قد أمتلك وعياً دقيقاً لطبيعة الظروف

التاريخية التي عانتها الأمة في القرنين السادس والسابع الهجريين ، كما أمتلك فهما واضحا لطبيعة المخاطر التي تهدد كيان الأمة ممثلة في الجانب السياسي ، وتهدد هويتها ممثلة في الجانب الاجتماعي . وكان للأنقسام الكبير الذي عانته الأمة آنذاك بحيث أصبحت عبارة عن دويلات متناحرة وتحالف بعض حكام تلك الدويلات مع الأجنبي في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية أثره البالغ في اطروحات أبن تيمية التي أكدت دور الانتماء العروبي أو دور العرب في التصدي للمخاطر التي تهددت الأمة آنذاك ممثلة في الغزو (التتري والصليبي) ولعل الأهمية الكبيرة التي تنطوي عليها اطروحات أبن تيمية تتأتى من التشابه الكبير بين المرحلة التاريخية التي عاشها أبن تيمية والمرحلة التي تمر بها الأمة العربية اليوم ، فما أشبه اليوم بالبارحة . ولعل هذا التشابه هو ما يحتم علينا أن نحاول استقراء تلك الاطروحات التي قدمها ابن تيمية بشيء من الاهتمام .

فهو يشيد بدور العرب وفضلهم في الدعوة الإسلامية وفي نشرها بين الأمم وتأسيس الدولة العربية الإسلامية وقيادتها ويرجع ذلك إلى مجموعة من الخصائص التي امتلكها العرب وانفردوا بها عن غيرهم من الأمم ، ويقول في وصف هذه الخصائص : ((وأما العمل فأن مبناه على الاخلاق ، وهي الغرائز المخلوقة في النفس . وغرائزهم - أي العرب - أطوع للخير من غيرهم ، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الاخلاق المحمودة ، لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ، فلما بعث الله محمدا (ﷺ) بالهدى الذي ما جعل الله في الأرض ، ولا يجعل مثله أعظم قدرا ، وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ، ومعالجتهم على نقل تلك العادات الجاهلية والظلمات الكفرية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم واستنارت بهدى الله الذي أنزل على عبده ورسوله، فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم والكمال الذي أنزله الله إليهم))[٢] .

وإذا انتقلنا إلى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين فأننا نجد رأيا مقاربا لرأي ابن تيمية السابق ، وهذا الرأي هو للكواكبي يثبت فيه حقيقة مهمة مفادها أن العرب هم أفضل من يقوم بمهمة الإصلاح الديني المطلوب لتحقيق النهضة – إذا أخذنا في الحسبان أن جدلية (الإنحطاط – النهضة) قد شكلت المعلم الفكري الأساسي للمرحلة التي عاش فيها الكواكبي – وقد انطلق الكواكبي في اطروحاته في هذا السياق من قاعدة اساسية نستطيع أن نلخصها في محورين – على الرغم من أن الكواكبي لم يصرح بهما علنا – وهما:

١ – أن المنهج النهضوي يجب ان يعتمد أساسا على الإصلاح الديني من حيث كونه قاعدة عامة لتحقيق الإصلاح الشامل .

٢ – أن العرب هم خير من يقوم بهذا المنهج الإصلاحي ، ومن ثم فواجب الإصلاح يقع على عاتق العرب – من دون غيرهم – وهذا الأمر يستتبع – بالضرورة أن العرب هم الأحق والأقدر والأجدر بقيادة الإسلام .

يرجع الكواكبي قوله بأن العرب هم من يجب أن يتولوا أمر القيادة السياسية للدولة العربية الإسلامية ، إلى عدة أسباب موضوعية ، أبرزها الآتية:-

١ – الموقع الجغرافي النموذجي للجزيرة العربية الذي يتوسط قارات العالم – أولاً – والذي يبعد الجزيرة العربية عن التأثيرات الخارجية – ثانياً – ولوجود الكعبة المشرفة فيها – ثانياً – .

٢ – الصفات الخاصة بالعرب ، بعدّهم أول من أسلم ، وكونهم مؤسسي الدولة العربية الإسلامية . وفي هذا السياق يعد الكواكبي للعرب من الخصائص الكثير مما يؤهلهم لتولي قيادة المسلمين ومن أبرز هذه الخصائص ، الآتية:

أ – امتلاكهم للطبيعة البدوية البعيدة عن الزيف والتقليد .

ب - كون الدين ما يزال حنيفا سلفيا لديهم .

ج - كونهم أعلم المسلمين بقواعد الدين لأنهم أعرفهم به .

د - أنهم أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين .

هـ- أنهم أحرص الأمم على أصالتهم وتراثهم واستقلالهم .

و - أن لغة القرآن هي لغتهم .

ز - أنهم متمسكون بالأخلاق الرفيعة وقواعد الشورى بالسليقة .

ويلخص الكواكبي من كل ما تقدم إلى استنتاج أن العرب أنسب الأمم ليكونوا مرجعا في الدين وقدوة للمسلمين ، إذ إن بقية الأمم قد أتبعت هديهم ابتداء فلا يأنفون من اتباعهم لاحقاً .

٣ - لقد كان الهدف الذي سعى الكواكبي وراء تحقيقه جاهداً هو وحدة المسلمين ورفعة شأنهم ، والأداة لتحقيق ذلك هم العرب ، ومن هنا جاءت دعوته إلى انتقال الخلافة إلى العرب ، ومما لا شك فيه فأن هذا الرأي ينسجم مع الاطروحات السابقة التي أشرنا إليها في أولوية العرب في تحمل مسؤولية الحكم ، لقد ألقى الشك في صحة عد السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين مستندا في هذا إلى أن الفقه السياسي الإسلامي يعدّ الانتساب إلى قريش أحد اشتراطات الخلافة .

٤ - ودعا تبعاً لذلك - إلى حق العرب في الخلافة ، فهم الأنسب ، والأكثر قوة للمسلمين ، ومن ثم فلا يجوز الاعتماد على العثمانيين في أمر الحكم(٥).

وإلى الأسباب نفسها تقريبا يعزو محمد رشيد رضا رأيه القائل بأن العرب هم قادة الإسلام والمسلمين ، فيقول في سياق أعطاء المرجعية الشرعية لطرحه هذا مخاطبا الحجاج في "منى" ((أنكم تعلمون أن الإسلام دين سيادة وسلطة ، وأن شريعته أنزلت ليقيم أحكامها أهله ، ... وتعلمون أن الله تعالى قد جعل هذا الدين عربيا إذ أنزل القرآن الذي هو أصله وأساسه باللغة العربية على لسان

النبي الأمي العربي محمد (ﷺ) وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: [[وكذلك أنزلناه حكماً عربياً]][٦] فهذه الآية أخص من الآيات الناطقة بأنزال القرآن عربياً ، لأنها مصرحة بأن حكم هذا الدين عربي ، مع العلم بأن كتابة المتعبد به عربي ، وهذه البلاد العربية هي مهد هذا الدين ومهبط وحيه ومشرق نوره ، وكان أهلها هم السابقون إلى تلقيه والاهتداء به ... ثم حمله العرب إلى سائر الأقطار ونشروه فيها . فأمتد في الجيل الأول منهم حتى عم نوره الشرق والغرب ، وأروا الأمم بإقامة أحكامه من العدل والرحمة ما لم يعرفوا ولم يسمعوا له نظيراً))[٧] .

ويتوافق رضا مع اطروحات الكواكبي بشأن كون الجزيرة العربية وما يحيط بها من بلاد عربية خير مكان لتأسيس الدولة . وذلك لما يتمتع به أهل هذه البلاد من خصائص ، ولما يتمتع به هذا الموقع من اعتبارات تاريخية معنوية . وما يتمتع به من مزايا جغرافية تتمثل في توسطه للعالم الإسلامي ومن ثم بعده عن المخاطر الخارجية المباشرة التي يمكن أن تتهدده من الحدود الخارجية للأمة[٨] . ويذهب رضا إلى أبعد من ذلك حين يرى أن مصلحة العرب تكمن في انشاء دولة مستقلة لهم ويرجع ذلك إلى كون الأمة العربية تمتلك عراقة وقدما في الاستقلال ، ومدنية عالية في التاريخ ، كما تمتلك أدباً ولغة وتراثاً زاخراً ، وشريعة من أعدل الشرائع ، وقد تعرضت كل هذه المزايا التي تمتلكها الأمة إلى المخاطر ، لعدم وجود دولة مستقلة لها ، فالأغلبية من العرب تدين بالإسلام ، واللغة العربية هي لغة هذا الدين فلا تصلح لمسلم عبادة بغير هذه اللغة ، فبالدولة العربية تحيا لغة القرآن ، وتحيا بحياتها شريعة الإسلام فمن البديهي إذن أن يكون الخير كل الخير للمسلمين في هذه الدولة[٩] .

ولعل أبن باديس ينطلق من المنطلقات السابقة نفسها حين يشير إلى أسبقية العرب في الإسلام ، فيقول : ((حق على كل من يدين بالإسلام ويهتدي بهدي القرآن أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم ، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام ، ذلك لأرتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام ولعناية القرآن

بهم ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وفضائل إلى أمم الأرض . فأما أنهم قد ارتبط تأريخهم بالإسلام فلأن العرب هيئوا تاريخيا لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة العالمية ، ولأن الله الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمته يأمرنا أن تنزل الناس منازلهم في شريعته ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة))[١٠] . ويذكر بقوله تعالى [[فاستمسك بالذي أوحى إليك على صراط مستقيم وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون]][١١] ويمضي إلى القول "ويشعر الله سبحانه العرب أن عليهم من الواجبات في مقابل هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم ... وهذا الشرط الذي ذكره الله وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ"[١٢] . ويقول في سياق المقارنة بين دور العرب واليهود في تاريخ الإنسانية ، أن الله اختار بني أسرائيل لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون وليكونوا مظهرا للنبوة والدين في أول أطوارهما وأضيق أدوارهما . ولكن الأمة العربية أستطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله، وأما بنو إسرائيل فما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم وأنما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق[١٣] . أما العرب فهم قد "أختيروا لوظيفة عالمية لما فيهم من شرف متأصل واستعداد كامل وصفات مهيأة"[١٤] .

دور اللغة العربية في الإسلام :-

تعد اللغة العربية أداة الفكر العربي الحضارية وأداة نشر العقيدة الإسلامية وفقه شريعتها ، ولقد أشر معظم المفكرين الذي سبق لنا تناولهم أهمية الدور الذي لعبته اللغة العربية والمكانة الكبيرة التي احتلتها في هذا السياق . فها هو ابن تيمية يعزو إلى أهمال اللغة العربية دوراً جد مهم في ضعف التزام الناس بالعقيدة الإسلامية[١٥] . ويمكن لنا أن نخلص من الرأي السابق لأبن تيمية أنه يعطي اللغة العربية دورين من الأهمية ، الا وهما :-

١ - عدّ اللغة العربية وسيلة لتحقيق الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية .

٢ - عدّ اللغة العربية أداة للفكر والثقافة المفضيين إلى تحقيق النهضة الحضارية للأمة .

ويشيد ابن تيمية بفضل العرب وأثر اللغة العربية في نشر الإسلام بين الأمم، فيقول : "وسبب هذا الفضل والله أعلم ما اختصوا في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم . وذلك الفضل أما بالعلم النافع أو بالعمل الصالح . والعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم وله تمام : وهو قوة المنطق الذي هو قوة البيان والعبارة والعرب هم أفهم من غيرهم ، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني[١٦] .

وإذا انتقلنا إلى رضا فأننا نجده يعد اللغة العربية من بين أهم العوامل التي يقوم عليها الإصلاح (الديني - الاجتماعي) إذ أن الترابط بين هذين الجانبين في الإصلاح هو أساسي وقوام المنهجية التي يعتمدها رشيد رضا لتحقيق النهضة[١٧].

لقد آمن رضا بأن الوحدة الإسلامية يجب أن ترتكز على وحدة اللغة ، واللغة في الأمة الإسلامية لا يمكن أن تكون اللغة العربية . فاللغة العربية هي لغة المسلمين كافة[١٨] . أن تفكيره في هذا الصدد استند أساساً إلى العقيدة المرتكزة على وجوب بعث أمة عربية إسلامية منبعها وحدة الدين واللغة والتراث ، ولاسيما بعدما أقدم عليه الأتراك من تنكر لدور العرب في الإسلام ، وأهمالهم حفظ لغة الدين ومحاربتهم للثقافة العربية ، وسعيهم المستمر للنيل من أحد مقومات الذات الإسلامية الأساسية وهي اللغة العربية . وقد تجلى هذا بصورة جلية في عهد الاتحاديين الذين سعوا إلى الخط من شأن العنصر العربي واضطهاده . وفي أطار تأكيد رضا أهمية دور اللغة العربية في الإسلام وفي نشر العقيدة الإسلامية جاء حرصه على حفظ هذه اللغة من الدخيل اللغوي ومن اللهجات العامية ، بوصف اللغة العربية عاملاً جوهرياً من عوامل وحدة العرب .

ومن هنا جاء رفضه لبعض الدعوات التي انتشرت آنذاك التي أراد أصحابها استبدال اللغة العربية باللهجات العامية .

أن الفكر العربي الإسلامي لا يمكن أن يزدهر الا بازدهار اللسان العربي، كما أن اللغة العربية هي لغة العرب والمسلمين على حد سواء ، إذ أنها لغة القرآن ولغة الحديث النبوي الشريف وهما مصدر التشريع الأساسيين في الإسلام، فضلاً عن أن اللغة العربية هي لغة الصحابة من السلف الصالح الذين حملوا العقيدة الإسلامية ونشروها بين الأمم وفسروا شريعتها وكانوا المتفقهين فيها ، ويستتبع هذا القول أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي يمكن بواسطتها دراسة الإسلام وفقه أحكامه وتفسير أصوله .

أما ابن باديس فأنه يقرن بين اختيار الله للعرب وتشريفهم بحمل الإسلام، والنهوض بالعالم كله من خلال نشر العقيدة الإسلامية وحضارتها في إرجائه ، وبين اختيار لسان العرب ليصون الرسالة الإسلامية ووسيلة للنهضة ، ويمضي إلى القول : "ولا عجب فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبداً بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها"[١٩] . ويقول ابن باديس في الحديث عن دور اللغة العربية بعدّها أحد أبرز مقومات العروبة ، وكونها إحدى أهم دعائم القومية . "اللغة العربية ، لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة . أنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا وهي وحدة المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا ، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من الآم وآمال . أن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين ، وخدم العلم ، وخدم الإنسان ، هو الذي نتحدث عن محاسنه من زمان ، ونعمل لأحيائه من سنين"[٢٠].

أسباب التراجع الحضاري :

يجمع معظم المفكرين المذكورين سابقاً على أن أسباب الوهن والضعف قد بدأت تدب إلى أوصال الأمة حين تخلى العرب عن دورهم الريادي في الإسلام. أو - بعبارة أخرى - فأن أولئك المفكرين يربطون بين استبعاد العرب عن قيادة الأمة وحالة التقهقر والتراجع الحضاري الذي عانته . فابن تيمية - مثلاً - يقرن ضعف الدولة العربية الإسلامية ، وتفكك المجتمع العربي الإسلامي بخضوع العرب للأجنبي[٢١] . وهذا يعني ضمنا أن العرب هم من يجب أن يتولى قيادة الدولة العربية الإسلامية وهم من يجب أن يتولى السلطة فيها . ويرى أن تفاقم حالة الإنحطاط من خلال الهيمنة الأجنبية على مقدرات الأمة بحيث أنها لم تعد قادرة على قيادة المسيرة الحضارية كما كانت يوم أقامت دواتها الأولى في المدينة المنورة في عهد الرسول (ﷺ) ، والخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم- بعده الذين امتلكوا العلم والعدل والسلطان[٢٢] . وهذه هي - بلا شك - اشتراطات النهضة .

ويقدم محمد عبدة مبررات التراجع الحضاري الذي عانته الأمة مقاربة لما قدمه ابن تيمية ، إذ يرى أن من أهم اسباب تراجع الدور الحضاري للأمة هو توقف فعالية العقيدة الإسلامية في حياة المسلمين ، أو - بعبارة أدق - تجريد العقيدة الإسلامية من مضامينها الحياتية والاجتماعية الفاعلة والمؤثرة في المجتمع والساعية نحو العمل والإبداع ، الأمر الذي أدى إلى الركود والخمول الذي أصاب الأمة ، ويرجع عنده السبب في هذا الانفصام الحاصل بين المسلم والعقيدة الإسلامية إلى خلل قد أصاب بعض عناصر العقيدة ، فأدى إلى ما يشبه الشلل أو الجمود ، وهذا الأخير نشأ عن علة عرضت على المسلمين عندما تسللت إلى الإيمان النقي الأصلي - الذي بثه حملة الدعوة الإسلامية الأوائل من العرب - بعض من الأفكار والعقائد الأجنبية ، فخالطت عقيدة الإسلام حتى غيبتها وحجبتها عن العقول . وقد كان الجانب السياسي هو الخطوة الأولى في

هذا الطريق التقهقري - الارتجاعي الذي عانته الأمة . إذ كانت السلطة وكان السعي إلى امتلاكها والمحافظة عليها هي التي دفعت بالمعتصم (الخليفة العباسي) إلى أن يتخذ من سعة الإسلام ، وتسامحه مبرر الاستبدال الجيش العربي - الذي ظن أنه يمكن أن يكون عونا لخليفة آخر على حكمه - جيشا أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم ممن أصطنع لنفسه بإحسانه واستعباده وممن لا يخشى من جانبهم خطراً ، فما كان من ذلك إلا أن استعجم الإسلام ، فأستبد الجند الجدد بالسلطة وبالدولة حاملين خشونة الجهل وألوية الظلم ، فلم يحفلوا بالعلم وبأهله وإنما حملوا كثيراً من أعوانهم على أن يتدرجوا في سلك العلماء ، فيدخلوا على العامة من باب التقوى وحماية الدين ليحسنوا التقاليد والشعائر التي سادت الوثنية وغيرها ويسنوا من عبادة الأفراد والمتشبهين بهم ما يدفع بالناس إلى الضلالة ، ويقرروا بعد هذا كله، أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول به المتقدم ، وجعلوا هذا بمثابة العقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول[٢٣] ويتضح مما تقدم أن منهج الأنحراف عن اصول العقيدة قد ابتدأ مع العناصر غير العربية التي دخلت الإسلام فأفسدت السلطة ، ومتى فسدت السلطة فسدت الأمة .

وينطلق رضا من نفس المنطلقات في توصيفه لحالة التخلف الحضاري الذي عانته الأمة ، فيرى أن الضعف الذي طرأ على السلطة الإسلامية كان مرجعه إلى تفرق الوحدة العربية الكافلة لتلك السلطة الأمر الذي تبعه تغلغل الأعاجم في قيادة الدولة العربية الإسلامية[٢٤] . أن رضا مثل غالبية المفكرين الأصلاحيين المحدثين يرى أن ضعف الإسلام أو قوته منوطان بالعرب ، فبقوة العرب يقوى الإسلام والعكس صحيح ، ومن ثم لا يمكن قيام الوحدة الإسلامية من غير توحد العرب ، إذ أن العرب هم أفضل من يقود المسلمين وما الضعف الذي أنتاب الدولة العربية الإسلامية إلا بسبب تغلغل العنصر غير العربي إلى السلطة السياسية . وهو في هذا الطرح يبدو متوافقاً - إلى حد كبير - مع التحليل الذي سبق لعبده أن قدمه بشأن ظاهرة التراجع الحضاري الذي مرت به الأمة .

عوامل ومقومات الوحدة العربية : -

أن الإسلام هو أحد العوامل التي تشكل الرؤية القومية الذي لا يتعلق فقط بجوهر القومية ، بل يتعداه إلى حد الارتباط بالنمط الاجتماعي الذي تتم فيه وبالشكل السياسي الذي تتحقق من خلاله . وعود على بدئ فقد كانت أولى محاولات الوعي القومي وأولى ارهاصات التعبير عن الانتماء العروبي قد ارتبطت باسم الجاحظ ، فهو يقول في نص - يؤشر أدراكاً واضحاً لمقومات التوحيد العربي - : أن العرب "كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، واللغة واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابه ، والاتفاق في الأخلاق وفي الاعراق ، من جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء ، فهم في ذلك وبذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل"[٢٥] . فالجاحظ يشير إلى أن العرب يمتلكون عوامل الوحدة والتوحد : من وحدة جغرافية ، إلى وحدة لغوية ، مروراً بوحدة العادات والتقاليد والأعراف والطباع ، ووحدة الدم والعرق والنسب وانتهاء بوحدة المصالح والمصير ، ووحدة التاريخ والتراث .

وإذا أردنا أن نستعرض اسهامات المفكرين العرب المحدثين في هذا المنحى ، فإننا نجد أبرزها تأتي من ابن باديس الذي أسس فهمه للقومية على الخصوصية الحضارية للأمة ممثلة في : التاريخ ، واللغة ، والدين ، والثقافة، والتراث . وفي بحثه عن جذور الخصوصية الحضارية وجه جل اهتمامه للتاريخ، وفي ظل معطيات واقع الغزو الفرنسي ، أنعكس المفهوم القومي جلياً من خلال تأكيد جوهر الشخصية الجزائرية في طابعها القومي ، والتركيز على ما يبرز هذا الطابع ويفعله في حياة الجزائري وبهذا الصدد يقول ابن باديس : "أننا نعتصم بالحق ، ونعتصم بالتواضع عندما نقول أننا شعب خالد ، ككثير من الشعوب ، ولكننا ننصف التاريخ إذا قلنا أننا سبقناها بهدايتنا وسبقنا هذه الأمم

في نشر الحق أيام كانت في ظلمات الجهل ، ذلك ما كنا فيه وما سنعود إليه وأنما علينا أن نعرف تاريخنا ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة في هذا الوجود"[٢٦] . ويبرز هنا تأكيد الدور الحضاري للأمة ، للتأسيس عليه والأنطلاق منه إلى بناء حاضرها ومستقبلها ، والذي يجب أن يكون مشرقاً كما كان ماضيها ، فالأمة العربية "تربط بينها زيادة على رابطة اللغة رابطة الجنس ورابطة التاريخ ورابطة الألم ورابطة الأمل ، فالوحدة القومية والأدبية محققة بينها لا محالة"[٢٧] . ويؤكد أبن باديس حتمية تحقق الوحدة العربية وضرورتها بالاستناد إلى توافر مقومات هذه الوحدة ، فيقول : "هذه الأمة فاقت سبعين مليونا عدا - في أيامه - تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقداراً عظيماً من دمها ، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة"[٢٨] . ويوضح أن العائق الذي يقف بوجه تحقق الوحدة السياسية - بعدّها المحصلة الطبيعية للوحدة القومية- هو أن كل الأقطار العربية لا تزال رهينة للهيمنة الاستعمارية وما أشبه توصيف ابن باديس لواقع العرب آنذاك بحالهم اليوم ، فكثير من الأنظمة العربية تخضع لهيمنة الأجنبي وتقف - بعدّها أداة منفذة لسياساته - عائقاً أمام أي توجه وحدوي تضامني قومي - والوحدة السياسية "لا تكون إلاّ بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها وتكون كلها في تنفيذها أو الدفاع عنها يدا واحدة ، فهي مقتدرة على الدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها .

وأما الأمم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمراً لنفسها"[٢٩].

التداخل بين العروبة والإسلام:

من كل ما تقدم يظهر جليا لنا أن الروابط بين العروبة والإسلام جد وثيقة، بل أننا لا نجانب الصواب حين نقول أن الروابط بينهما تتجاوز كونها

روابط التقاء أنها روابط مفصلية تفضي إلى علاقة تداخلية فحضور العروبة يعني حضور الإسلام وفهم دور الإسلام فهما صحيحاً يستلزم بالضرورة وعيا بكون العروبة عموده الفقري .

وقريباً من هذا الطرح يذهب رشيد رضا عندما يربط بين الحرص على الدين والحرص على الوطن والقومية ، بل هو يجعل توافر الأول شرطا لتحقق الثاني . أو بعبارة أدق - فإنه يرى أن النتيجة المنطقية اللازمة عن المحافظة على الدين هي المحافظة على الوطن والقومية[٣٠] . أنه يجعل العلاقة بين الغيرة على العقيدة والغيرة على الوطن والقومية علاقة اشتراطية تلازمية تستند إلى الضرورة.

ويأتي موقف ابن باديس ليؤكد حقيقة التداخل والتكامل بين العروبة والإسلام . فهو في خطاب له ألقاه عام ١٩٣٧ عن أهداف جمعية العلماء الجزائريين ومبادئها القومية يقول : "العروبة والإسلام والعلم والفضيلة ، هذه أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة"[٣١] . ويضع ابن باديس الوحدة العربية أساساً لتحقيق الوحدة الإسلامية ، بل هي نواة لها ، فيقول : "أن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا هي دائماً منا على البال ... وأقرب هذه الأوطان إلينا المغرب ... ثم الوطن العربي الإسلامي"[٣٢] . ومما لاشك فيه أن تأكيد ابن باديس أهمية الدائرة العربية والإسلامية بالنسبة للجزائر ينطوي على دلالات مهمة ، ولا عجب فقد كانت عروبة الجزائر وأسلامها هما مقوماً شخصيتها المتميزة ، التي - طالما - قاوم ابن باديس بهما سياسة فرنسا في إدماج الجزائر بها . ولهذا فهو يقول - في رده على القوانين التي أصدرتها فرنسا ضد اللغة أو الثقافة العربية الإسلامية - "قد فهمنا - والله - ما يراد وأننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على

المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي - بعون الله - في تعليم ديننا ولغتنا رغم ما يصيبنا . ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شراكنا في قتلنا بأيدينا . وأن النصر سيكون حليفنا لأننا قد عرفنا إيماناً وشاهدنا عياناً أن الإسلام والعروبة قضى الله ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتها"[٣٣] . أن في العبارات الأخيرة لابن باديس تأكيد لحقيقة عضوية العلاقة التي تربط العروبة بالإسلام ، وتجعل كلا منهما رديفاً أو ظهيراً للآخر ، فلا يمكن لأحدهما أن ينهض من غير نهضة الآخر والعكس صحيح ، فأن تراجع أحدهما يعني - بالضرورة - تراجعا للآخر لما بينهما من روابط وأواصر متينة لا يمكن لها - بحال من الأحوال - أن تنقطع ، بل ولا حتى أن تتراخى . إذ أن حصول هذا التراخي قد أدى إلى حالة التخلف الحضاري الذي عاشته الأمة في الفترة المظلمة من تاريخها .

أن الدين يكون عاملاً مساعداً من جهة خلقه أحساساً شاملاً بالتضامن القومي ، فالعقيدة الإسلامية - تبعاً لذلك - تعد أساساً ضرورياً لنشر أية دعوة شاملة تعتمد على العاطفة والوجدان مثل القومية العربية ، وهذا هو ما يلمح إليه الحصري أن الدين "يولد نوعا من الوحدة في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً ، فالدين يعتبر في هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض وتؤثر بذلك في سير سياسة التاريخ"[٣٤] .

وكذا يفعل محمد عزه دروزه حين يربط بين العروبة والإسلام ، ويشير إلى أن الإسلام هو أحد أبرز العوامل التي أدت دوراً مهماً في تطوير الهوية العربية وتكوين قوميتها ، فضلاً عن عوامل أخرى ، مثل : اللغة ، والجنس العربي ، فيقول : "أن أنتشار العربية معناه انتشار سلطان العرب الروحي والثقافي والأدبي معاً ، واندماج المسلمين جميعاً في ظل العروبة اندماجاً قوياً ، مما قام البرهان على عظيم مداه وصحبته فعلاً ، حينما انتشر الإسلام في اضياع الأرض في صدر الإسلام حيث غدت اللغة القرآنية هي اللهجة العربية السائدة

في الجيرة ومهاجر العرب"[٣٥] . كما يشير إلى أن الإسلام قد حقق في عصر الرسالة توحيد العرب الذين كان لهم شرف الاختصاص بها في ظل كيان ديني وسياسي واجتماعي واحد ، فاستطاع الإسلام أن يقضي على العصبية القبلية العتيقة ، وهيأ العرب من خلال ذلك وأعدهم للقيام بتحقيق الهدف الأسمى وهو حمل شرف نشر العقيدة الإسلامية في أرجاء المعمورة ، هذا الشرف الذي إناطته بهم الرسالة وأختارهم الله لتأديته .

ويسهب دروزه في حديثه عن دور الإسلام في تحقيق وحدة العرب وإنهاضهم من حالة التشتت التي كانوا يعانوها قبل مبعث الرسول محمد (ﷺ) حين يعد قيام الوحدة الروحية من العوامل المهمة في تحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية . فضلاً عن كون توافر الوحدة الروحية - يعني ضمناً - أن هنالك وحدة ثقافية - اجتماعية - أولاً ، ووحدة تشريعية - ثانياً - إذ أن من المعروف أن المصدر التشريعي الرئيسي للأغلبية من العرب ، ومنذ أكثر من أربعة عشر قرناً هو العقيدة الإسلامية وأن كان ذلك بنسب متفاوتة من زمان إلى آخر ، ومن مكان إلى آخر[٣٦] .

أن تأكيد الدور الكبير الذي لعبه العرب في تلقي ووعي العقيدة الإسلامية، وحمل ونشر تعاليمها إلى أمم الأرض كان بارزاً في فكر عبد العزيز الدوري ، وبالاستناد إلى هذا الدور المهم يصبح الإسلام جزءاً من التراث العربي ومن الوعي التاريخي العربي ، وفي هذا السياق يقول الدوري : "لقد تجمع الوعي العربي وأندفع إلى توثب طغى في حركة كبرى هي الحركة الإسلامية ، كانت حركة عربية في أصلها وبيئتها وصاحبها ولغتها ، فهي تعبير عن الروح العربية التي لا ترتضي القبلية والبداوة وما يتصل بها من قيم ومُثل ، وترفض الفوضى الاجتماعية والفكرية والتجزئة السياسية ... أن الفترة الأموية هيأت للعرب جواً ملائماً لجعل السلطان عربياً ، وللشعور بأنهم جماعة مميزة عن غيرهم ، وأن هذه الامبراطورية تكونت بجهودهم وجمعتهم وراء أهداف مشتركة"[٣٧] .

ويبرز ميشيل عفلق متانة الصلة بين الإسلام والعروبة ، إذ أن الإسلام هو المعبر الحقيقي عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول ، وبعدّ الإسلام ينطلق من كونه مستند إلى بيئة أو تربة واقعية ممثلة في العرب ويرمي إلى تحقيق أهداف إنسانية مثالية . ومن خلال الإسلام عبرت الأمة العربية عن تطلعاتها الإنسانية ولعل مفهوم القومية العلمانية الذي ساد الغرب يرجع إلى سبب منطقي هو أن الدين قد وفد إلى أوربا من الخارج - أصلاً - ومن ثم فأن الدين بالنسبة لأوربا هو عنصر أجنبي سواء أكان ذلك قياساً بطبيعتها ، أم بالأستناد إلى تاريخها ، في حين أن الإسلام بالنسبة للعرب ليس عقيدة آخروية فحسب - كما هو حال المسيحية في أوربا - بل أن الإسلام هو المعبر عن نظرة العرب للحياة - من جهة - ، والمعبر عن شعورهم الكوني (الميتافيزيائي) - من جهة أخرى- وبهذا الصدد يذكر عفلق أن الإسلام يعد بمثابة الثقافة القومية - بالنسبة للمسيحين - والتي يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم"[٣٨] .

وأخيراً لابد أن نعرج على رأي مفكر عربي آخر لا يمكن لنا أن نغفل دوره في التنبيه على التداخل الحاصل بين العروبة والإسلام ، وهذا المفكر هو محمد عمارة الذي يذكر في مقالة له أن بعض الباحثين يحاولون تصوير الفكر الإسلامي في بداياته الأولى ، وتقديم القرآن الكريم بعدّها فكراً قومياً عربياً كاملاً ومتكاملاً ، ومن ثم قدموا لنا رأياً في الدولة العربية الإسلامية وحركة التوحيد بين القبائل التي انجزتها ، ويضيف القول ، أن ذلك لم يكن فقط بداية للفكر القومي العربي ، وأنما كان الصورة الكاملة والمتكاملة لهذا اللون من ألوان التفكير وذلك النمط من أنماط الممارسة والتطبيق[٣٩] . وبهذا الصدد فهو يرى أن دور الإسلام في نشأة الشعور بالانتماء العربي ، أو - بعبارة أخرى - أن المضمون العروبي في الإسلام قد ظهر في حقبتين تأريختين أساسيتين ، هما :-

١ - الحقبة التي شهدت فيها شبه الجزيرة العربية التعاليم الثورية التي جاء بها الإسلام ، والتي حاول المسلمون الأوائل النزول بها إلى ميدان الممارسة والتطبيق .

٢ - حقبة الازدهار الحضاري التي سادت الإمبراطورية العربية بعد أن تمت الفتوحات العربية الكبرى واكتملت لشعوب الأقطار المفتوحة مقومات "التعريب" وصار ولاءهم جميعاً للحضارة العربية الإسلامية على الرغم من احتفاظ البعض بدينه القديم[٤٠] .